أكد القرآن الكريم في أكثر من آية أن الشهداء أحياء عند الله، وفي آيات سورة عمران تناول تفاصيل حياتهم الكريمة بجوار الله عز وجل، وأنها تجري عليهم الأرزاق، (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

هؤلاء الشهداء المكرمون لهم فضيلة أن مُنِحوا حق الاطلاع على ما يحدث وراءهم من أحداث، وحق العلم بحسن عاقبة رفقائهم المجاهدين، الذين يمضون على ذات الدرب، فاستبشروا بهم؛ ذلك أنه لا خوف على أولئك الرفقاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولم يبدِّلوا تبديلاً، ولا هم يحزنون.

وهذه دروس يستفيدها المجتمع من أولئك الشهداء، حري بنا أن نسأل أنفسنا إزاءها: هل استفدنا منها شيئا؟، وهل نالتنا بركات استبشار الشهداء السابقين في مسيرتنا؟ وهل حاولنا أن نستفيد منها؟

أول تلك الدروس: أنه بفضل الشهداء يصل المجتمع إلى مطلوب الله منه من السعادة الحياتية، والتخلُّص من الظالمين، وانتصار المظلومين، وكفِّ بأس الذين تكبَّروا وتجبَّروا من المعتدين، وينتصر معنويا بإحساسه بتحقق الإنجاز، وهو ما يعطيه قوة معنوية إضافية تحفِّزه للاستمرار لمزيدٍ من البذل والعطاء؛ ولأن الجهاد ما شرع إلا لأمر عظيم وغاياتٍ مقدسة فتحقُّقُ ذلك الأمرِ العظيم وتلك الغايات المقدسة مكسبٌ للمجتمع أراده الله تعالى، وإرادة الله تعالى تدور حيث مصالح الأمة، وحاجاتها الفطرية والمباحة.

ثانياً: ما انتصرت أمة ولا تحققت عزتها وكرامتها إلا بقوافل من العطاء الكريم، عطاء الأرواح والأموال، والله سبحانه وتعالى يكتب النصر لهذه الأمة التي قدمت أفلاذ أكبادها في سبيل الحق.

ثالثا: تقوى حالة الإيمان في المجتمع، فيرضى أقربوا الشهيد بهذه النتيجة الطيبة والكريمة، ويصبرون، وفي رضاهم وصبرهم درسٌ تربوي يحتاجه المجتمع، لتشتعل في قلوبهم روحُ المصابرة والمرابطة والمثابرة، وينتصِب الشهيد درساً نموذجياً للذين لا يزالون مُرْهَقين بثقل الدنيا وأوضارها، فيكون الشهيد أستاذا لهم يلقنهم مبادئ العزة، ومثالاً عملياً يمكِّنهم من الاحتذاء به، حيث هو السابق وهم اللاحقون، وحينئذ يسهل عليهم الانطلاق إلى الله ومتابعة سيره، ومن مقتضيات الانطلاق إلى الله أن يهيئ النفسيات المتردِّدة والمتشكِّكة للمثول بين يدي الحق مثولاً ثابتاً صحيحاً، لا زيفَ فيه ولا ريب، فيحبون لقاء الله، وبهذا تتحرك دورة جديدة لمجاهدٍ جديد أو لمجاهدين جُدُد، قد يكون منهم شهيدٌ جديد، أو شهداء جدد، وعند كل تضحياتٍ وعطاءاتٍ تتنزَّل عطاءات الله ومِنَحُه الكريمة وآياته الجزيلة.

رابعاً: يعطي الشهداءُ لمجتمعهم درسا في الارتباط بالله، والانطلاقة الصادقة إليه، وأن تتوجَّه القلوبُ والمشاعر والأرواح إلى خالقها وبارئها، وأن ترقبه في كل وقتٍ وكلِّ حين، وحين تمرُّ بها حالاتُ الشدة فتستعين بالله، وحالات الرخاء فتشكر الله، فإنها تعوِّدها وتمرِّنها على حالة الارتباط الوثيق بالله، وهذا باب عظيم وينبوعٌ ثرٌّ يمدُّ المجتمع بالمبادئ الدينية، والمعالي الروحية، والقيم الإنسانية والأخلاقية التي تحلِّق بأبنائه بعيداً عن الطباع الحيوانية، وتسمو بهم عن الملذات الشهوانية، ليجدوا أنفسهم في مجتمع راق، وأمة حية سامية، تتعالى على الأقذار والأوساخ، وتعلو على الشهوات، فيحيى الدين، وتستقيم الحياة.

خامساً: يخلق الشهيد بخاتمته التضحوية وعياً في أمته ومجتمعه بالقضية التي جاهد واستُشْهِد من أجلها، وأنها قضية تستحق أي ثمن، وحينها سيتلقَّى الوعيُ المجتمعيُّ أن أمرا مهما يجب الالتفاف حوله، والتحرك من أجله؛ ولهذا كتبت الحياة الدائمة لتلك القضايا التي أريقت حولها الدماء، وتدفَّقت من أجلها الأرواح؛ ولما ثار الإمام الحسين عليه السلام وحفيده الإمام زيد عليه السلام على الطغاة في عصرهما، وكان الإسلام قد أصبح جسداً لا روح فيه، وأصبح مجرد طقوس والتزامات سطحية لا جوهر لها، فأعاد دمُ الإمامين الشهيدين روحية دين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتعلم المجتمع بذاته أن هناك مبادئ وأخلاقا وقيما وعبادات ومعاملات يجب التنبه لها والعودة إليها، وأنها تستحق أغلى أنواع البذل والعطاء، إنها الدين، والأخلاق، والقيم، التي كان الطغاة قد عقدوا العزم على تجاهلها ونسيانها، وكان المجتمع في مجمله قد انساق إلى ما يريدون لولا تحركات أولئك الشهداء المجدِّدين للدين وقيمه وتعاليمه.

سادساً: يتأهل المجتمع باكتساب روحية الشهداء، التي هي في جوهرها تعني فناء الذاتِ الفردانية من أجل الغاية النبيلة الكلية، تعني العطاء بلا حدود، وإذا كان الطغيان والفساد والظلم يعني الاستئثار وحب الذات على حساب المجموع، فإن الشهيد يقدِّم درسا عمليا للأمة أن بإمكانها أن تعيش حياة أخرى أجمل وأفضل، وأكثر لذة وسعادة، حيث يقدم لها درسا عمليا يغاير تماما ما يفعله الطغاة من استئثارٍ وظلم، وهذا الدرس هو بتقديم خيرِ العطاء؛ وحين يكتسب المجتمع هذه الروحية العالية التي تقدِّس معنى العطاء والإيثار والمبادرة، فإنه يكون قد أغلق على نفسه أوسعَ أبوابِ الطمع والتناحر والشقاق والاختلاف، الأبواب التي كانت من أهم أسبابِ شقاء الإنسان وعصيانه لله، سيكون هذا المجتمع مجتمعا أقربَ إلى العطاء منه إلى الأخذ، أقرب إلى الإيثار منه إلى الاستئثار، وهذا ما عجزت عن تحقيقه أفضل الكليات التعليمية، والمعاهد التربوية، وأقوى القادة نفوذا وتأثيرا في مجتمعاتهم؛ لأنهم ببساطة يفتقدون إلى دروس الشهداء العطائية.

سابعاً: وحينئذ يتربّى ويتعوّد المجتمع على الاستغناء عن الكماليات الاقتصادية والمعيشية، والتي قد تكون سببا مهما من أسباب الظلم والسرقة والتعدي والتجاوز، فإذا اكتسب المجتمع روحية الشهادة التي تعني العطاء والزهد والقناعة والإيثار، فإنه سيساهم بشكل كبير في غياب حدة الطمع، والبخل، والتهور، والاستئثار، وسيترفع عن الكماليات التي قد تدفع به نحو الأموال غير المشروعة.

ثامناً: هذا المجتمع الذي أصبح الشهداء فيه هم الفئة العظيمة التي تستحق التعظيم، ستعلو همته، وتكبر أهدافه، وتسمو تحركاته، بسمو الأهداف القرآنية، وعلو المعالي الإنسانية، وحينئذ سيكون المجتمع مرؤوسا بالضمير الحي، ومحكوما بوزراء القيم، وإدارات الأخلاق، إنه المجتمع الذي يتحرَّك كما يريد الله برغبة ذاتية منطلقة من هذه المعاني العظيمة، المجتمع المحكوم بالمبادئ والقيم الإسلامية والإنسانية أكثر من السلطات الإلزامية، والضغوطات العُرفية والمجتمعية.

تاسعاً: المجتمع الذي أصبح له في كل بيت شهيد يقدسه ويحترم جهده، ويقدس غايته وخاتمته، فإنه سيهيئ الكثير والكثير خلفه للتخلق بذات الأخلاق، والتطبع بنفس الطباع، والتحرك في نفس المسلك، وحينئذ تتحقق فيهم أقوى قيم الشهداء، وأفضلها، وهو أنهم لا يرهبون الموت، ولا يخافون الظالمين، ويكرهون العيش مع المستكبرين، وأيُّ شعب أو أمة أو مجتمع بات لا يرهب الموت، ولا يخافه، لهو شعب حر عزيز كريم، لا تتخطّاه أوامرُ الانحراف، ولا تتجاوزُه رغبات الفاجرين، ولا تؤثر فيه تهديدات الطغاة المستبدين.

عاشراً: يتعلم المجتمع من الشهيد أن التضحية والاستبسال والفداء مواقف تحيي الأمم، وتنتزع حقوقها، وتكتب أمجادها، وتحقق غاياتها، وهل هناك أعظم من (العزة) الإيمانية التي علت روحُ الشهيد مضمَّخةً بعطرها، مسكونة بنقائها وإخلاصها، العزة التي تنتصر لله بتحقيق العدل والكرامة والمجد، حين ترتفع بالعباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، العزة التي يقول الله عنها: (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً) (النساء:93)، (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) (المنافقون8)، وهل هناك بلاء أصيبت به أمة الإسلام اليوم إلا بلاء ارتهان قادتها للدول العظمى، فابتغوا العزة عند أمريكا وإسرائيل، والسبب هو انخلاعهم عن ثقافة القرآن وثقافة الجهاد وثقافة الشهادة، فأحبوا الدنيا، وتعلقوا بأسبابها على حساب الكرامة والالتزام بالدين ومبادئه، غير أن روح الشهيد وهي تعلو إلى الله، فإنها إنما تكون منارا منيرا للأحرار، تدلُّهم على الوجهة الصحيحة نحو العزة التي تعلو على كلِّ متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب، وشعبٌ يعتز بالله لهو شعب عظيم ومنتصر ومرهوب الجانب.

حادي عشر: هذا الشعب الذي وصل إلى هذا الحد من العزة والمنَعَة وإباء الضيم وتقديس الحرية وكُرْهِ الظلم والفسوق والعصيان، وعُرِف عن رجاله أنهم يقدِّمون الشهداء، تلو الشهداء، ولا يخضعون، أو يُسْتَضامون، فإنه شعبٌ لا يقبل الهزيمة، ولا تجوز عليه أنواع التهديد، ولا يخاف من الوعيد، ويشق طريقه نحو المجد والكرامة والقوة أكثر وأكثر.

هذا المجتمع الذي قدم الشهداء عمليا وسرت روح الشهادة في رجاله ونسائه، وأصبح الشهداء فيهم منارات التقى، وأعلام المجد، وهامات الفخر، وأصبح سواء لديهم أن ينتصروا في المعارك ويظفروا مادياً فيها، أو تحلِّق أرواحُهم إلى الملأ الأعلى، هؤلاء لا يمكن لدولة أو لحلف أو لقوة في الدنيا أن تهزمهم، أو تبتزهم، مهما عظمت قوتها، وتطوّر سلاحها، أو كثرت أموالها. من جانب آخر ليس هناك أخطر على الشعوب من حالة الخوف والقلق والضعف والتهاون والانخذال والتراجع وحب الدنيا والبقاء إذا تمكَّنت منها؛ لأنها تجعلها لقمة سائغة في أفواه الأنجاس، ومَطْمَعا للمتربِّصين الطامعين.

روحية الشهداء التي تعلموها من ثقافة القرآن هي التي جعلت أفراد هذا المجتمع يتحركون بشجاعة عالية، فبات المقاتل اليمني مرهوب الجانب، مهاب الحركة، يثير العجب، ويملأ الدنيا شموخا وعزة.

ثاني عشر: هذا المجتمع الذي أعطاه الشهداءُ هذه الروحية واكتسبها منهم عن جدارة، فأصبح يتمنى الموت ويرجو لقاء الله - لا يمكن أن يتسلل إليه الإحباط، أو يستحوذ عليه الملل، أو يصاب بالخيبة، مهما أصيب من آلام، ونال من كلوم وجروح؛ لأنه يريد لقاء الله من أي الأبواب التي توصله إليه تعالى، إن من باب الشهادة أو من باب الانتصار وتحقيق المراد الإلهي في أرض التكليف وساحة الاختبار؛ لأنهم إن انتصروا مادياً وهزموا العدو فذلك خيرٌ عجّله الله إليهم، ونصرٌ سريع زوّدهم به، وإن غادروا التكليف شهداءَ فتلك أمنياتهم الذهبية، وسعاداتهم الحقيقية، وأتى الله بغيرهم ليسدوا المكان الذي تركوه أضعافاً مضاعفة.

ثالث عشر: الشهداء حجة الله القائمة على أولئك البشر القاعدين، الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، واغتال أفكارَهم وعقولَهم ضعفُ البصيرة، أو قلة الوعي، أو التخبُّط في الأولويات، فذهبوا يفتِّشون لأنفسهم عن الأعذار، ويقمشون التعِلات، ونسوا أن العدو إذا تمكن منهم سوف لن يرحمهم، ولن يرأف بهم، وضخّم الشيطانُ أخطاءَ المنطلقين بأكثرَ من حجمها في وعيهم، لما طلبوا المسالك المثالية الجماعية التي لم تتحقق حتى في أزهى عهود الأنبياء والمرسلين.

لكن هؤلاء الشهداء هم من سيحرِّكون ضمير مَنْ يعلم الله أن فيه بقية خير، وومضة رشد، فيتيسر له التغيير الفكري الذي يؤدي إلى التغيير في الموقف، وكم شهيد هو أقل منهم معرفة أو سابقة في الخير لمّا سارع إلى مرضاة الله فضّله الله على كثيرٍ من القاعدين أجراً عظيماً، فنال رضوان الله، وسبق إلى جنته، بينما أخطأ هذا الفضل أولئك الذين ختم الله لهم بالقعود والانخذال، وأركسهم بالركون إلى غياهب الغباء الديني والسياسي، والذي لن يفيد المجتمع إلا مزيداً من الشقاء والعنت.

لذا فليكن الذين لم يلحقوا بالشهداء على ثقة كبيرة أن مسلكهم الجهادي مسلكٌ هادٍ وراشد، وأن منهجهم الذي مضى عليه الشهداء من قبلهم منهجٌ رضيَه الله؛ فاختار أولياءه الشهداء إليه، ليُطلقوا البشارة بأحقية المسلك، وصوابية التحرك.

ما أعظم أن يسيرَ المجاهدُ في طريق سلكها أولياءُ الله الصالحون، وتتالى على اجتيازها الذين ختم الله لهم بالحسنى مِن المؤمنين.

ويستبشرون بالــذين لم يلحقوا بهم

ما عاهدوا الله عليه

الذكرى السنوية للشهيد

نحو جبهاتنا .. وفاءً لشهدائنا

1439هـ/2018م

إعداد/ المجلس الزيدي الإسلامي